الشاعرُ الصعلوك

كان الشاعر الشاب عبد الحميد الديب[1] غفر الله له نمطًا وحده في شعراء العصر، كان ظهوره رجعة إلى نوع انقرض من الشعراء الهجائين المستهترين المكدين الذين لم تهيئهم طباعهم للعمل الكاسب فأخلدوا إلى التبطل وحملوا عجزهم وعوزهم على لؤم الناس وظلم القدر، من أمثال أبي الشمقمق الذي يقول:

إن العيـــــال تـــــركتهم بالمصـــر خبـــزهم الغضـــارة
وشـــرابهم بـــول الحمـــار مزاجـــه بـــول الحمـــارة

ويقول:

ولقـــد أهزلـــت حتـــى محـــت الشـــمس خيـــالي
ولقـــد أفلســـت حتـــى حـــل أكلـــي لعيـــالي
مـــن رأى شـــيئًا محـــالاً فأنـــا عـــين المحـــال

وأبي فرعون الذي يقول:

وصـــبية مثـــل فـــراخ الـــذر ســـود الوجـــوه كســـواد القـــدر
عـــاد الشـــتاء وهـــمُ بشـــر بغيـــر قُمـــص وبغيـــر أُزر
حتـــى إذا لاح عمـــود الفجـــر وجـاءني الصـبح غـدوت أسـري
وبعضـــهم ملتصـــق بصـــدري وبعضـــهم منحجـــر بحجـــري
أســبقهم إلــى أصــول الجــدر هــذا جميــع قصــتي وأمــري
أنـــا أبـــو الفقـــر وأم الفقـــر

هؤلاء المفاليك المجان الذين جعلوا الشعر وسيلة إلى العيش بالهجاء الفاحش، والمدح المكذوب، والشكوى المستمرة، كانوا طبيعيين في المجتمع العربي القديم الذي كان يفهم الشعر على هذا النحو. فلما ذهبت بقايا هذا النوع بذهاب خليل نظير، وإمام العبد، وأحمد فؤاد، وأضرابهم، وأصبح للشعر في الأدب الحديث مفهوم آخر

(1) تقديم لكتاب (عبد الحميد الديب) الذي وضعه فيه صديقه الدكتور عبد الرحمن عثمان.

وأغراض أخر، كان شعر الديب شذوذا في نسق مطرد، ونشوزا في نغم مؤتلف، ولكنه ككل شاذ وكل غريب متجه الأسماع ومضطرب الألسن.

ذلك إلى أنه كان يجري على أسلوب الحطيئة وابن الرومي في قوة الهجاء، وعلى أسلوب ابن حجاج وابن سكرة في فحشن المجون، وكان يختلف عن هؤلاء جميعاً بألوان من الصور والتشابيه انتزعها من بيئته ونقلها عن واقعة.

نشأ الديب في أسرته الصغيرة الفقيرة كالنبتة البرية في الرملة الجافة لا يمسكها أصل راسخ، ولا يسندها جذع قوي، ثم عاشت على علالة الجدب وبلالة الندى فاخضرت من غير نضارة، وأشوكت من غير زهر، وظلت في العراء تقاسي السموم والقيظ، وتكابد السغوب والظمأ، حتى اقتلعها الريح وألقت بها هشيماً في أخدود من أخاديد الأرض.

قست الطبيعة على الديب فلم تزوده بما تزود به الحي الكامل العامل بالكفاية الكافية لابتغاء العيش السائغ الهنيء، فكان رغبة جامحة لا تحققها قدرة، وشهوة عارمة لا تضبطها إرادة. ورآى نعم الله تفيض من حوله على من يراهم مثله أو دونه، وليس له منها مورد ولا فضل، فأطال لسانه الحقد، ورفع عقيرته الجوع، وألهب شعوره الألم، وأمض نفسه الحرمان، فصدر عنه شعره كما يصدر الأنين عن المجروح، والصراخ عن المظلوم، والزمجرة عن الساخط. ولم يفهم الشعر على أنه فن يلذ أو رسالة تؤدي، وإنما فهمه على أنه سلاح يحمي، أو شخص يصيد. وكان منشأ ذلك الفهم القديم للشعر الحديث أنه كان كأكثر الشعراء القدماء لم يعرف الحياة على أنها جد وكد، وإنما عرفها على أنها لهو وصعلكة، ولذلك قضى حياته البوهيمية البهيمية شهوان لا ينام إلا على المسكر والمخدر، ولا يتيقظ إلا على الجوع والظمأ.

ولعل حظه العاثر المتخلف لم ينهض به في حياته وبعد مماته إلا مرة واحدة، تلك المرة هي التي أتاح له فيها قلم صديقه الدكتور عبد الرحمن عثمان، فخمد ذكره بهذا الكتاب القيم، ذلك الكتاب الذي لم يظفر بمثله شوقي ولا حافظ.

رسم الكتاب فيه صورة الديب فأقام هيكلها من شعره، ثم جعل فيها اللون والظل والبروز مما عرف من سيرته، واكتنه من سريرته، وكشف من أموره، فجاءت الصورة

واضحة الملامح، بينة الحدود، واقعية الدلالة، يترجم عنها بيان مشرق، ويدلل عليها منطق صائب. فذا تأملت هذه الصورة أو قرأت هذا الكتاب بدا لك الديب عريان على الفطرة بعُجره وبُحَره، بنابه وقرمه، بعوائه وجولانه، بسره وعلنه. وذلك غاية ما ترجوه من كاتب يكتب للتاريخ، ومن كتاب يترجم لشاعر.